فيصل درّاج

بين قضية أطفال العراق و«قضية أدونيس»

ليس في تحولات الزمن العربي الذي نعيشه ما يثلم حكمةً صائبة تربط بين الزمن المريض ومعاني أناشيده.. «في أزمنة الانحطاط يكثر الحديث عن المبادئ العظيمة» يقول بريشت. وقد استنبط الأخير قولَه من وقائع فاشية تهلك أرواح البشر وتصفّق لأرواح الأجداد. وأهلك التاريخ الفاشيةَ العاتية، واحتفظ بقول بريشت صحيحاً: فالانحطاط لا يهجر الزمن الإنساني، وإنما يتهمّش حيناً ويظفر بمركز القرار حيناً آخر. ولعل في تعامل الإعلام العربي المسيطر مع «قضية أدونيس»، ما يكشف عن زمن يضيق بالحقيقة ويقزّم كلَّ القضايا الحقيقية ويحول القضايا الصغيرة إلى قضايا كبيرة.

ففي زمنٍ هدّهُ المرضُ والانحطاط والهزيمة الوطنية، يتحول اجتهادُ شاعر إلى مسألة مصيرية، بينما يُترك «أطفال العراق» إلى مصيرهم الحزين، ويصبح سؤال الصهيونية متاعاً من الماضي. يُلقَى برداء النسيان على أسئلة الحياة والتاريخ، وتهتف الحروفُ المريضة بحياة «الكلمة الحرة» و«الاجتهاد المبدع». والدفاع عن «حرية الرأي» بداهة تقترب من التقديس، لا يرفضها إلا من ظلم واستبد، على شرط أن تربط الكلمةُ الحرّة بين حقِّ المبدع وأرواح البشر، وأن تقرن بين الإبداع والكرامة الإنسانية والوطنية. وما يجري على مسرح الإعلام العابث يقوّض البداهات الصغيرة، لأنه يكوّم الكلام ويدوس فوق أرواح الأطفال. ولهذا فإنّ «الإعلام العربي العابث» يأخذ من الاستبداد بأعلى مراتبه، ينكّل بالحقيقة ويمجّد القضايا الكاذبة.

يحتفظ قول بريشت بدلالاته: تحتفل أزمنة الانحطاط بالقضايا الكبيرة، أي أنها تحتفل بتخليها الكبير عن المبادئ الحقيقية. يتم وَأْدُ المبادئ في لحظة الاحتفال، فيكون الضجيجُ ستاراً والهتاف قناعاً، أو يحتل العارضُ مكانَ الجوهري ويطرده، ساتراً الاحتلال الجائر بمسلسل قشيب من الكلمات. وفي زمن الضوضاء الخادعة يبتلع الصمتُ الرهيبُ أطفالَ العراق، وتتماهى الحريةُ بكلمات شاعر، وتبتلع الكلماتُ الملوّنة كلَّ المعاني الممكنة... فكأنّ الكلمات تحيل على القواميس، بعيداً عن عيون البشر والوقائع اليومية. وفي زمن الصراخ المنظّم يقف عدد مجلة **الآداب** عن العراق معلّقاً في الهواء، يراه من يرى الوقائع قبل أن يلتفت إلى الكلمات، ويحتفل به مَنِ احتفظ في ذاكرته بمعاني الحرية والكرامة التي أملاها «القاموس القديم». ومع ذلك، فإن عدد **الآداب** المعلّق في الهواء، يتلو علينا، من جديد، آياتِ الهامش الذهبي الذي لا يغيب، الهامشِ الذي يحتفظ بمواقفه، مهما كان مركز الزّور قويّاً ومتسلطاً.

في العلاقة ما بين قضية «أطفال العراق» و«قضية أدونيس» ما يجسّد فضيحة كاملةً تثير الغضب والأسى العميق في آن. ذلك أنّ القضية الأولى مغيّبة، لا يعترف بها «النظامُ الدولي الجديد» ولا إعلامه؛ فالعراق/ وقد تجرّد مزوَّراً وتزوّرَ مجرداً، شر مطلق، والطفل العراقي الشرير لا يستحقّ كأساً من الحليب ولا جرعة دواء، والعجوز العراقي الشرير غير جدير بالحياة، وأرضُ العراق شرٌّ كأهله، تلوّث هواء «السلام» النظيف. ولذلك يُترك العراق لمصيره، بعد أن ناصبه الخيرُ العداءَ وهزمه، ويمر عدد **الآداب** عن العراق كضيف ثقيل وغير مرغوب به، لأنه يشير إلى ما يرفضه الخير ويكرهه. إذْ ليس في حياة مئات الألوف المهدّدة بالموت ما يشكّل قضية أو يقترب من القضية.. فالقضية، الجديرة باسمها، تذهب إلى اجتهاد شاعر، بل تذهب، بشكل أدق، إلى سياق معيّن، يرى في اجتهاد شاعر مناسبةً كريمة.

يرفع السياقُ الظالمُ قضيةَ فرد إلى مقام القضية الجليلة، ويخفض

قضيةَ مجموع إلى مرتبة سؤال موبوء. يقوم العطبُ في السياق، الذي يمتهن الفردَ والمجموع معاً. فلا جديد في أحوال مثقف يقيس الاجتهاد بأحوال الزمان، ولا دهشة من اضطهاد استعماري يقع متجدّداً على شعب عربي. والجديد، بالمعنى النسبي، هو هروب شبه كلي من تعابير العقل والكرامة القومية؛ والمدهشُ، بالمعنى المجزوء، هو التخليط الطليق بين الكتابة والفائدة. وكلمة السياق لا تحمل ما يحصنها، فما يرتهن إلى سياق يغيب بغيابه، بعيداً عن الحقيقة التي تتجاوز الفصول. فلو كان في الكتابة المسيطرة ما يحيل على كرامة الكلام لتوقّفتْ أمام القضيتين المتفارقتين بشكل مختلف، ولأقامت الفرق بين المعذّبين في الأرض وصُنّاع الكلام الموسمي. وفي أحوال العراق ما يستدعي كتابة عادلة لأكثر من سبب: فالسبب الإنساني هناك، حيث الحصار الشامل يجعل من الموت عملةً يومية، يحصد الفقراءَ والضعفاء وجموعَ المنسيين والمضطهدين؛ وهناك ما تدعوه اللغةُ بـ«الدافع القومي» و«المحرض الديني»، فأهل العراق ينطقون باللغة العربية ويعتنقون الإسلام. وربما يغوص البعض في «عقلانية سياسية» باردة، تاركاً الأسبابَ الإنسانية إلى أصحاب العواطف السائبة، وربما «يُحدِّث» البعضُ مقولاته ويهجر «نمطَ التفكير القديم»، فيكتفي بالعالمي والكوني وبما جادتْ به قرائحُ منظرّي «النظام الدولي الجديد». غير أنّ كل هذا لا يختلس من العقل، إن احترم مراجعه، إمكانية المقارنات البسيطة. فالشرعية الدولية التي سعت إلى «إرجاع العراق إلى زمن الإنسان البدائي» بقيتْ صامتة أمام وقائع جائرة متعددة، مازجةً بين صليبية قديمة وبربرية متجددة. تتلاشى «العقلانية السياسية» المزعومة، وتخبر عن لاعقلانية مطلقة السراح، جوهرُها التبعيةُ والارتزاقُ وتسويقُ الوجوه. وقد يتدثّر المبدعُ بقشيب الكلام، ويعلن عن نبذه للسياسة ومقته للمفردات «السياسية الأيديولوجية» وانصرافه إلى الابتكار اللغوي المحض. والحجة الأخيرة تزيد القائل بها عُرياً؛ ففي تراث العراق الأدبي ما يشفع لشعب أعطى الكثير من

يحددُ سياقُ الانحطاط الذي نعيشُهُ أنّ الدفاع عن أطفال العراق لا يتواءم مع الحداثة والعدالة والزمن الجديد، فيمرّ عدد «الآداب» عن العراق ضَيْفاً ثقيلاً!

المبدعين، ولم يَزَل لهاثُ السيّاب يتردّد في فضاء القصيدة العربية، ونازك الملائكة تحتفظ بذكريات «القصيدة الأولى» في مستشفى مرغوب، وغائب طعمة فرمان يرقد في قبره بعيداً عن **النخلة والجيران**، وفؤاد التكرلي يتأمل زمناً داست أزاهيرَه أقدامٌ ثقيلة متتابعة... لقد أعطى العراق الثقافة العربية الحديثة ما يفرض على الكتابة الأخلاقية أن تدافع عن شعب أدمنَ التوقَ إلى الحرية والخيبة في الظفر بها في آن. تجتمع الأسباب، متعددة، لتأمر بنصرة شعب مخذول ومظلوم. غير أنّ سياق الانحطاط، الذي نعيشه، يحدّد معنى السواد والبياض والفضيلة والرذيلة، ويقرّر أن الدفاعَ عن العراق لا يتواءم مع الحداثة والعدالة والزمن الجديد، وأنّ نصرة طفل يفتقد الدواء معارضةٌ للشرعية الدولية وتمرد على سوق الثقافة المسيطر.

لا جديدَ في اجتهاد مثقف، إن أصاب أو أخطأ؛ فَلَهُ أن يتأمل المستجدات ويعطي فيها قولاً، يحاوره البعض ويواجهُه بالحُرْم والنبذ بعضٌ آخر. و«المستجد» يختلف في دلالته وخطره، الأمر الذي يجعل منطقَ خصم «المثقف المجتهد» يقبل الحوار بدوره، من دون تعنّت وضوضاء مختلقة. ويدور الأمر كله بين أركان شعار عائم، يتخّذ له «التطبيع» اسماً، ويقترب في تعويمه من شعارات زائفة أخرى، مثل «الشرعية الدولية، الديمقراطية، عملية السلام، حقوق الإنسان، القرية العالمية...». إن مقولة «التطبيع»، كما تمارَس في الإعلام العربي المسيطر، مرآة للتضليل والتعمية وتسفيه القضايا الأساسية. فقد دأب هذا الإعلام، وباستهتار نادر الوجود، على ربط «التطبيع» بحرية الرأي وباختلاف الاجتهاد، كما لو كان موضوع الخصومة نصاً روائياً أو وثيقة تاريخية، علماً أن الموضوع يمسّ هزيمة أمة ويترجم انتصار الخصم الصهيوني، الذي قاتلته الأمةُ العربية عقوداً متلاحقة. ومثلما استطاع الإعلامُ العالمي المسيطر أن يفصل بين الكلمات ومعانيها، فإنّ الإعلام المسيطر، في شكله العربي، أجهض دلالة الكلمات، إلى حدود القتل والتنكيل. تتبدى «الشرعية الأمريكية» دوليةً، في خطاب القهر والتزوير، بقدر ما يُستعلن «التطبيعُ» حوارَ مثقفين مبدعين، في خطاب الهزيمة. يرتكن الخطاب المهزوم إلى حجج على صورته: فيكتشف «أصالة الثقافة العربية»، ويثق بأصالتها لمواجهة ثقافة أقل أصالة، وتصبح «الأصالةُ الثقافية العربية» أداةً للخديعة والاستسلام. وقد يتقدم البعض بحجة مثقلة بالصفاقة فيقول: «إذا كان السياسي يمارس التطبيع، فلماذا لا يحقّ للمثقف أن يطبّع؟». هذه الصفاقة لا تحجب ذيليةَ مثقف أدمن تسليع المواقف وتوسل رضاء السياسي - المرجع. وربّ قائل، يمزج السذاجة بالانصياع، يقول: «إن كانت الأنظمة العربية سائرة إلى التطبيع، فلماذا هذه الضجة المفتعلة عن التطبيع الثقافي؟». يتمّ الفصل، في هذه المواقف، بين الثقافي والسياسي، كما لو كان للثقافة حصنها المغلق المكين، أو كما لو كانت السياسة اختصاصاً، لا يقربه المثقفون الغارقون بدورهم في اختصاص آخر. والفصل المزعوم تبدّده الوقائع، ويكذّبه مشروع صهيوني لا يفصل إطلاقاً بين السياسة والثقافة.

يختزل الخطاب الإعلامي السائد مقولة «التطبيع» إلى لقاء نظيف بين مبدعين عرب ومبدعين إسرائيليين. ينتهي التاريخ ويندفن في تربة قوامها الإبداع، حيث جمالية الكلمات تلغي أحوال البشر: فلا نصر ولا هزيمة، ولا موقع للاعتداء والاغتصاب والاحتلال؛ فالموقع كله لعقول جمالية تتأذّى من غبار التاريخ وصرخات الذاكرة المستيقظة.

وما الندوات المتناتجة عن «الإبداع والكونية، والإبداع والسلام، والإبداع في عالم متغيّر...» إلا صورة للعقل الجمالي الذي يوحّد العربي بالإسرائيلي، ويقرّب بين أرواح لا تعبأ باللغات ولا بـ«الحواجز النفسية والقومية»، مادام الإبداع ينقلها من أرض البشر إلى مكان آخر. والمؤسي في لقاء العقول الجمالية أن المبدع العربي المفترض يسلخ جلد لغته قبل أن ينطق بها، بينما يحتفظ بها الإسرائيليُّ سليمةً من دون أذى. ولعل لعبة «الإبداع الكوني» هي التي تدفع بالمبدع العربي إلى أن يأكل تاريخه ولا يتطلّع إلى الوراء، فيقصد سوقَ الثقافة العالمية، ويروّض لغته ويصقلها، كما لو كان يرى السوق المقدس ولا يرى من قضايا شعبه إلا قليل القليل. وحين يقول إميل حبيبي: «يجب أن لا ننسى أننا كتّاب كونيون»، فإنه يشير إلى حفنة الهواء المريضة، التي يفقد فيها الكاتبُ العربي توازنه، فيعيش في مكان ويتحدّث عن هموم مكان آخر.

ويبدو أن بعضاً من المثقفين العرب مأخوذون بقوة الكلمات المكتفية بذاتها: فالحداثة هي الحداثة، لا تُرَدُّ إلى ما قبل الحداثة ولا إلى التحديث، ولا تستدعي تحولاّت المستويات الاجتماعية التي تنتج الحداثة. تظل الكلمة معتصمة بجوهرها، لأنها جوهر لا يحتاج إلى ما عداه. والغائب الكبير، في لعبة الكلمات، هو: السببية الاجتماعية المتعددة الأبعاد. وتصدر من معاطف الكلمات ـ الجواهر مقولةُ «التطبيع»؛ فشأناً ثقافياً تكون ولقاء إبداعياً، وتكون اجتهاداً يلبّي تصور المثقف الطارد للسببية، بنيويةً كانت أم أحادية المستوى. يلتحق «التطبيع» بأسئلة الإبداع، يعكس هموم النخبة المتعالية ويتأذّى من هموم بسطاء البشر. وكذلك تمر كلمة التطبيع لدى البعض يسيرةً هيّنة، لا تؤرق خاطراً ولا تستثير تفكيراً، مع أنها مدخل سليم إلى التاريخ العربي القومي الحديث بأسره.

لماذا يقع «التطبيع» على العربي المهزوم وحده، ولا يقع على «زميله» الإسرائيلي كذلك؟ وهل التطبيع هو لقاء «المبدعين» فحسب؟

وإذا كانت كلمة التطبيع تردّ، في لغة الإعلام المسيطرة، إلى المخزن اللغوي الذي يأوي «حقوق الإنسان» و«نهاية التاريخ»، فإنها تحيل في الهامش اللغوي الوطني على تاريخ قومي ووطني متعدد المستويات. يبرز الاعتراف بالهزيمة مدخلاً وحيداً للمقاربة الرافضة للهزيمة والاستسلام، حيث الهزيمة محكومة بعناصر داخلية وخارجية في آن، من دون أن تبتعد، في الحالين، عن المشروع الصهيوني وغاياته. ومقاربة كهذه تفصح عن أسئلة تختلف عن أسئلة حرية التعبير ودلالة الاجتهاد. ومن هذه الأسئلة: ما هي الأسباب التي أنتجت سؤال التطبيع ودفعت بالمثقف العربي إلى القبول به والتعامل معه؟ هل «عملية السلام» الدائرة تتضمن فعلياً مقوّمات السلام وخصائصه؟ وهل على المثقف القبول بالظواهر المريضة المتجددة أم البحث عن الأسباب التي تخلقها والأدوات التي تصدّها؟ وهل تتعرّف الثقافةُ كفعل تقني قوامه القراءة والكتابة، أم أنها تتحدّد كمشروع تحويلي اجتماعي تشكل السياسةُ قوامَه وجوهره؟ هل يمارس المثقف الإسرائيلي التطبيعَ إسوةً بـ«زميله» العربي، أم أن التطبيع يقع على العربي المهزوم لا أكثر؟

يتكشّف سؤال التطبيع، في هذه الحدود، معقداً ومتعدّد الأبعاد، يتجاوز هواجس المبدع واللقاء في قاعات جميلة الهندام. ينفتح السؤال على تاريخ الدولة العربية الحديثة، التي منعت عن المجتمع حركته الطليقة، واختصرت الشأن المجتمعي، في مستوياته كلها، بقرارات سلطوية تحدّد معنى الحرية والتعليم والهدنة والمعركة. ولم يكن تاريخ الدولة العربية الحديثة إلا تاريخ تهميشها للمجتمع وتدميره، إلى حدود الإلغاء، الأمر الذي جعل من التاريخ العربي تاريخ الصراع على السلطة، أي تاريخ تدمير الشعب بأدوات سلطوية. ولا يمكن تفسير هذا الواقع بأساطير «الاستبداد الشرقي» و«طبيعة الدولة الإسلامية»، كما لو كان الاستبداد يشكّل جوهر العربي والمسلم؛ بل إن هذا الواقع يُفسَّر بوظيفة التبعية والسيطرة الاستعمارية، التي شكّلت الصهيونية لها الذراعَ المسلّحة الفاعلة. يترجم سؤال التطبيع، بهذا المعنى، سيرورةَ الإخفاق المتواتر لمشروع الدولة العربية الحديثة... هذا الإخفاق الذي ولد مع هزيمة حزيران الشهيرة، وتناتج طليقاً في الحرب الأهلية العربية في لبنان، وفي احتلال الجيش الإسرائيلي لبيروت، وهزيمة الناصرية في مصر، وإخفاق المشروع التحرّري في السودان، وتحلّل المقاومة الفلسطينية، وانحلال الثورة الجزائرية، وصولاً إلى حرب الخليج، التي أعلنت انطفاءَ الإرادة العربية المقاتلة، ولو مؤقتاً، ومهّدت السبيلَ أمام التطبيع وعملية السلام المريضة.

ولم يكن غريباً في سيرورةٍ مسكونة بالهزيمة والخطأ والتعنّت، أن يتقهقر المثقفُ العربي الحديث إلى الوراء، ويعود إلى دور الكاتب الريفي، الذي يلبّي حاجات السلطة وتلبي السلطةُ احتياجاته، متخلياً عن دوره النقدي وعن وظيفته في صياغة مشروع قومي ـ مجتمعي جديد. ولم يعد غريباً أيضاً أن تختزل السلطةُ الثقافةَ إلى مجموعة أفراد يتّخذون من الكتابة مهنة، ويخضعون في مهنتهم إلى أوامر السلطة وقيودها. وكانت الثقافة، في مصيرها المأساوي، تُدَمَّرُ كمشروع سياسي ونقدي وجماعي، وتتنزّل إلى دَرَك المهنة المحايدة، أو الوظيفة التبريرية، فاتحة الباب واسعاً أمام شكلين مسيطرين للمثقف، يأتلفان ويلتقيان في النهاية. الشكل الأول هو: المثقف السلطوي، والآخر هو المثقف التقني. يبرّر الأول أحوال السلطة، ويبرّر الثاني أحوال المعرفة التي لا تؤرّق السلطة. ويتعرّف

هذا المثقف، في شكليه، بفرديّته أو في الوظيفة التي تحقّق هذه الفردية وتصونها، بل يصبح دور الثقافة إسناد الفردية وتغريرها.. أي تتحوّل الفردية المقنّعة بالثقافة إلى أداة لتدمير الثقافة، في معناها العميق. ولم يكن للدهشة مكان، في سيرورة التآكل المتتابعة، أن يتعامل المثقف العربي المسيطر مع مسألة التطبيع، كما اعتاد أن يعالج ما عداها من الأسئلة الأخرى، فيدثّر فرديته بغطاء جديد، قابلاً بما يصون الفردية، سواء جاء من السلطة السياسية أم من سلطة السوق الثقافية التي ازدهرت مع الدولار النفطي وتوطّدتْ مع ظهور «النظام الأمريكي الجديد».

* * *

تلقي الملاحظات السابقة ببعض الضوء على التعامل المبتذل مع قضية التطبيع الثقافي مع إسرائيل. ويستعلن الابتذال في إرجاع التطبيع إلى سؤال مبذول، تختلف فيه الأمزجةُ والأذواق، بينما يتحوّل شأنُ أدونيس إلى قضية كبيرة. والسؤال، في معناه العميق، لا يتوقف أمام اجتهاد أدونيس ولا أمام موقف اتحاد الكتّاب العرب منه، لأنّ ما هو جدير بنعت القضية يقوم في مكان آخر، يمسّ هزيمةَ الأمة العربية وهوانَ مثقف الأمة المهزوم. ولعل المسافة القائمة بين العارض والجوهري، تكشف عن ماهية الإعلام العربي المسيطر، أو عن ماهية السياق المسيطر في إعلامه المبذول. يتضمن الإعلام العربي المبذول إرهاباً سافراً وتضليلاً بيّناً: فهو إرهابيّ لأنه يهمّش الأساسي ويضخّم الهامشي؛ وهو مضلّل، لأنه يدفن الأسئلة الصحيحة ويحتفل بالأسئلة الزائفة. وينعطف الإرهابي على التضليلي لتحقيق وظيفة رادعة، ترضي السياق المسيطر، المتحدّث زوراً، عن الديمقراطية والموضوعية. بل يمكن القول: يُشكّل المنهج الإعلامي، الذي صاغ وخلق «قضية أدونيس»، أداةَ تَرْويع للأطراف الرافضة للتطبيع حيث يُمَزّجُ الموقفُ القابلُ للتطبيع أو الرافض له بألوان الديمقراطية وحرية الاجتهاد وبأطياف القمع والاستبداد. وهكذا تدور العلاقات في دائرة زائفة: تبدّل صيغة العربي والإسرائيلي أو القومي العربي والصهيوني الإسرائيلي، إلى صيغة الإرهاب والديمقراطية... يتم إلغاء الذاكرة القومية بلفظية إعلامية فاعلة، تتكئ على سلطة إعلامية مسيطرة. بل يمكن للأمر أن يأخذ شكل الكوميديا السوداء، إن لبّى السياق وقَبِلَ بالعملة الإعلامية الإرهابية: فمن يرضى بالتطبيع ويحاور «زميله الإسرائيلي» يكون ديمقراطياً، لأنه يقبل بالحوار وباختلاف الأفكار؛ ومن يرفض التطبيع ويقاطع «عدوه الإسرائيلي» يكون إرهابياً ومستبداً

الدخول الحقيقي إلى التاريخ يقوم على إدراك الفارق بين الأنا والآخر، لا الدخول إلى فضاء السوق الثقافية المسيطرة التي تحدد السلع!

وأسيراً لواحدية الأفكار. هذه المقايسة تعطي درساً نموذجياً في مبادئ اللاعقلانية، قبل أن تعطي نموذجاً بائساً في امتهان الذات والاحتفال بالهزيمة القومية، فليس الحديث عن التطبيع إلا المجاز الواسع لإخفاء هزيمة قومية واسعة.

تستجلى اللاعقلانيةُ المتهالكة والمنتصرة في آن، في مستويين متكاملين. الأول مرتبك ومتلعثم والآخر واضح ومتسق، من دون أن تمنع لعبةُ الوجه والقناع، التي تميّزهما وتوحّدهما، عن الاهتمام، بشكل متساوٍ، بـ«قضية أدونيس». يحتقب المستوى الأول ألواناً متعددة: يقبل البعضُ بالتطبيع السياسي ويرفض التطبيع الثقافي؛ وقد يقبل بعضٌ آخر بمفردات «النظام الأمريكي الجديد» ويحتفل بـ«الشرق الأوسط الجديد» لكنه يرفض التطبيع باسم الأصالة؛ وربما يزاود بعض آخر برفض التطبيع ويجاهر به معتبراً القضية، في اللحظة عينها، مسألة خلافية، يجوز فيها الرأي ونقيضه؛ وقد ينشر البعض على الملأ تمسكه بـ«الثوابت القومية» ويختلف على جميع الندوات المبشرة بـ«سلام جديد فوق أرض جديدة». تنبني اللعبة على أثير النوايا وصلابة الممارسات، إذ يذهب الأثير إلى اللغة العربية بينما تندرج الممارسات في عملية إجهاض العقل العربي المتواتر. والموقف لا جديد فيه، يُركن دعائم برجماتية قديمة، إذ «مثقف المعارضة» يهرب من نظامه إلى نظام آخر، معطياً صفةَ الاستبداد والخيانة للنظام الذي هرب منه، ويغدق صفة الوطنية والديمقراطية على النظام الذي استجار به. ومع ذلك، فإنّ للمستوى المتلعثم مستواه الآخر العميق، الذي يشتق النظريات المتحوّلة من السياقات المتغيّرة. ولقد أفرز السياق العربي الجديد، الذي أعقب حرب الخليج، نظريات صُحفية صغيرة تستلهم خطأً لفظية فلسفية كبيرة. فبعد أن «انتهى التاريخ»، وفقاً للإرادة الإعلامية الأمريكية، ظهر من يعطف سقوطَ القومية على سقوط الاشتراكية، فبدت القوميةُ العربية موروثاً استبدادياً قديماً، وغدا العداءُ للصهيونية امتداداً للإرث القديم الشمولي، لأن «الديمقراطية الجديدة» هدمت الجدران والأسوار القديمة. ولقد وقع البعض على صيغة غنائية فقال بـ«القرية العالمية» إذ حصاد الحقول يوزّع بالتساوي على الكادحين في الأرض. وكان على «القرية الجديدة» أن تجمع بين العرب والاسرائيليين في ركن «شرق أوسطي جديد»، حيث علاقات التجاور والسلام المعمّم تذيب العرب والاسرائيليين في قومية جديدة، وترسل بـ«القوميتين القديمتين» إلى زمن تولّى وابتعد. والفكرة ـ الأساس، في هذا كله، هي: «سقوط الأيديولوجيا»، كما تمليها معايير السوق الثقافية ـ الإعلامية المسيطرة؛ والأيديولوجيا هي القومية وفكرة التحرر الوطني والاشتراكية ومعاداة الصهيونية والاستعمار، وما عدا ذلك فهو «علْمُ زمن الجديد» حيث الصهيونيةُ علم محض، كما شعار «النظام الدولي الجديد».

يركن «منظّرو» الزمن الجديد، ربما، إلى مقولة «روح العصر»، فيسلخون جلدَ «العصر القديم» ويخلعون جلودهم ليدخلوا إلى تاريخ جديد. وحقيقة الأمر أنهم يدخلون إلى فردياتهم المتضخمة لا أكثر. فالدخول الحقيقي إلى التاريخ يقوم على إدراك الفرق بين الأنا والآخر؛ وما يفعله مثقفو المواسم هو التخلّي عن تاريخهم والدخول إلى فضاء السوق الثقافية المسيطرة، الذي يحدّد مضمون السلع وألوانها، بدءاً بالعالمية والتنديد بالأصولية الإسلامية وصولاً إلى كونية الإبداع والإبداع الكوني. وما يجري فعلياً منقطعُ الصلة عن الثقافة والإبداع، ووثيقُ الصلة بالاحتكار والنهب والتسليع؛ فـ«رأس المال الإعلامي» التابع والمشدود إلى تعاليم المركز يدرج في آلته «رأسَ المال الثقافي العربي» القائم تاركاً هامشاً محدود الأثر يتأتى على الانصياع. ولا يختلف دور «رأس المال الإعلامي»، في هذا الحال، عن دور المدرسة في النظام الرأسمالي. فمثلما تعيد هذه المدرسةُ إنتاجَ العلاقات الاجتماعية في ثنائية الجهل والمعرفة (من يملك يعرف ومن لا يملك لا يعرف)، يُعيد الإعلام المسيطر انتاج علاقات الصمت والإعلان؛ فمن يدخله يتعرّف ويشتهر ومن ينكره ولا يتوافق معه يلفّه الصمت أو يكتفي بهامش قليل. بهذا المعنى، يكون الاندراج في السلطه الإعلامية المنتصرة شرطاً للنجومية وتحقيق الإعلان، أي أن السعي إلى أركان الإعلام المنتصر شرط لازم لمن يريد الانتصار في معركة الإعلان عن الذات.

تعيد علاقات التهميش والإعلان ترتيب معايير المعرفة ووظائفها، فتتراجع الموضوعية والنقد والحقيقة معطيةً المكانَ لأقانيم الشهرة والمنفعة والنجومية؛ أي يتم تفريغ الثقافة من مضمونها، وتتفكك كمجموعة علاقات متكاملة، لتظهر من جديد كمجموعة من الأفراد يحتفلون بذاتياتهم الشهيرة وبنجوميتهم الباذخة. تتراءى، في هذه الحدود، ملامحُ المركز والهامش في حقل الثقافة، مع مفارقة جوهرية، تكون فيها الخديعة والخديعةُ الذاتيةُ ملازمةً للمركز،

في أزمنة الانحطاط يحمل المثقفون النجوم أعلامهم خفاقة، تاركين أعلام القضايا الكبيرة في أيد لا تكترث بمعايير الربح والخسارة!

وتكون الحقيقةُ فيها مصاحبةً للهامش... أي يكون الهامش هو المركز الحقيقي، مهما كانت مساحتُهُ محدودةً ومحاصرة. وفي علاقات الهامش والمركز الكاذبة، تذهب قضيةُ أطفال العراق إلى الهامش، ولا يتذكّر أدباءَ العراق إلا تلك المساحةُ المحاصرةُ من الورق، والتي تشكّل مجلة **الآداب** صفحةً ذهبيةً فيها. وفي أزمنة الانحطاط يحمل المثقفون ـ النجومُ أعلامَهم خفاقةً تاركين أعلامَ القضايا الكبيرة في أيد أخرى، تتطلّع إلى الحقيقة ولا تكترث كثيراً لسلطة الإعلان ومعايير الربح والخسارة.

* * *

تطرح مساحة التقوّض والخراب الذي تكشّف في الإعلام العربي تحت اسم: «قضية أدونيس» أو قضية «أطفال العراق» الغائبة، مسألةَ المراجع السياسية الوطنية التي تتكئ على هيبتها ومصداقيتها للتمييز بين الأسئلة الماسخة والقضايا الجوهرية. ذلك أنّ الأزمنة التي تحتفي بالأسئلة الصغيرة تعبّر عن انحطاط شامل يلفّ السياسيّ قبل أن يصل إلى الثقافي. فقد كانت المراجع السياسية، في زمن مضى، تفرض سلطتها، بالمعنى النبيل، على الحوار والأفراد والسوق، من أجل دفع الأسئلة في مسارها الصحيح. أمّا الآن، وبعد تفجّر العمل السياسي الوطني وابتذاله، فقد أصبحت الحياةُ الثقافية موئلاً لعبث ثقيل يجهض دلالةَ الكلمات ويفصل بين الكلمة والمعنى، حتى غدا «اللامعنى» طارداً لغيره. وفي العودة إلى زمن قضى ما ينعش الذاكرةَ ويمسح عنها بعضَ الغبار، ويعطي صورة لمعنى القضية الكبيرة. ففي زمن مضى عرف التاريخُ الثقافيُّ العربي «قضية طه حسين» وكان جوهرها الصراع بين أنصار التحديث وخصومه، وكانتْ فيها تلك الكثافةُ النبيلة العالية، التي تتضمن جملة الأسئلة المجتمعية: حرية الفكر، الارتقاء بالمجتمع، الوعي بالتاريخ، نصرة العقلانية... لم يكن طه حسين يعرّض جلده للنار من أجل حفنة من ذهب أو هوس نجومي فقير، بل كان يمارس دور «قادة الفكر» الذي تحدّث عنه طويلاً. وفي زمن ابتعد، كانت هناك قضيةُ «رئيف خوري»، الذي تناوب عليه الإفك والنميمة والتسفيه وهو يقاتل دوغمائيةً منتصرة وأمميةً رومانسية تمحو دلالةَ القومية بماديةٍ تاريخية زائفة... وعلى الرغم من حديث الإفك ونزعة تأديبية شرسة، احتفظ رئيف، دائماً، بجلده الأول، لم يبدّله ويغيّره، وفقاً للمواسم وأحوال المنتصر وألوان الصاعد المتغيّر، بل بقي، حتى رحيله، قومياً واشتراكياً، لا ينتقل من مدرسة إلى أخرى، كما يختلف المتسوّلُ المجرّبُ على أحياء مختلفة. وكانتْ، في زمن رحل، قضيةُ مجلة **حوار**، التي لم تتهم أفراداً، بل كشفتْ عن «حرية الثقافة» الكاذبة، التي تتنكّر للوطني بشعارات عالمية برّاقة تتكّل بالوطني وتكيد له. وكان في القضية ما يعلن عن جوهرها، إذ قوى الاستعمار تحارب عبد الناصر بالحديد والمدافع والنار وشعارات الحرية والديمقراطية. في هذه القضايا كلها ما يتجاوز همومَ فرد واجتهاده المجزوء، وما يتصل بأحوال شعب وأمة، بدءاً بالتحديث الاجتماعي وازدهار العقل وصولاً إلى تحرر وطني كريم.

تأخذ «قضية أدونيس»، لحظةَ إيقاظ العقل وإنعاش الذاكرة، حيزَها الحقيقي، وتكون ماشاء لها السياقُ أن تكون: قضيّةً مجزوءةً ومثقلة بالصنعة والتعمّل، لا تقصد العقل الجماعي ولا تسائل أحوال الأمة

المنهارة، إن لم تكن تسعف الانهيار وتصفق له طَروباً. ومن حقّ أدونيس، بالتأكيد، كغيره من المثقفين العرب أن يجتهد كما يرى، ومن حق غيره أن يقبل باجتهاده أو يزورَّ عنه، شريطة أن يبقي للعقل مكاناً، وأن يتبقّى قسطٌ من المسؤولية والمحاكمة الصحيحة، لأن أسئلة التطبيع المتعددة لا تتطابق مع أسئلة مدرسية عادية تقبل بالمقارنة البنيوية أو ترفضها مثلاً. فالاقتراب من سؤال التطبيع يفترض الاعتراف الصريح بهزيمة قومية، ويفترض، في اللحظة عينها، معالجةَ السؤال، من وجهة نظر مجابهة الهزيمة. وما حصل يخلط بين اختلاف المناهج القديمة واختلاف الحدود الجغرافية، كما لو كان التاريخ سلعةً تسلّع بين أساليب أدبية أخرى.

ومن المفارقة بمكان أن أدونيس لا يحتاج إلى قضية تحمل اسمه، مادامت قضيته فيه ولا تنفتح على خارجها: فهو الشاعر ـ الرائي الذي يضيق بمن لا يرى، سلطةً كانتْ أم مكاناً جغرافياً أم قارئاً؛ وهو المنفيُّ الأبدي الذي لا يرتاح إلا في ملكوت الإبداع ـ الأصل؛ وهوالمغتربُ السرمديُّ الذي لا يألف إلا ذاته؛ وهو المبدعُ ـ الجوهر، الذي ينبثق من ذاته ولا يعترف بالأزمنة. ومن كان قائماً في ذاته ولا يحتاج إلى ما هو خارجها، لا يكترث بمن يحمل عنه أعباءه، لأنه هو الداخل والخارج في آن، وهو العبءُ ـ الأصل الذي تتطامن أمامه كلُّ الأعباء الأخرى. وهذا ما يميّزه عن «أطفال العراق»، الذين يحتاجون إلى من يحمل عنهم أعباءهم أو يخفّفها. هنا تبدو المفارقةُ جارحة، إذ تذهب طقوس القضية إلى من لا يحتاجها، وتُمنعُ صفةُ القضية عن الطفل الفقير المصلوب في العراء. وبسبب هذا تستبين دلالةُ عدد مجلة **الآداب** عن نصرة العراق، تلك المجلة التي رفعتْ صوتَ من لا صوت لهم، ووقفتْ إلى جانب من يبحث عن قبضة دفء لا عن نجومية باذخة. لقد كانت **الآداب**، في صوتها المسؤول، تتابع، بشك مهموس، القضايا الوطنية الكبرى، التي رفعها، يوماً، طه حسين ورئيف خوري والحدسُ الناصريُّ الجميلُ المثقل بالأحلام والأوهام معاً.

يسخر هنريش هاينه من زمانه ويتندّرُ على البشر الذين يعكسون زمانهم فيكتب: «على صفحة هذا الرأس، الذي يفترض أن يكون وجهاً، طبعت آلهةُ الابتذال طابعَها، وفي شكل عنيف، حتى كأنَّ الأنف الذي فيه مسحوقٌ تقريباً، والعينان الخفيفتان تبدوان مرهقتين في البحث عن هذا الأنف»[1]. أما آلهة الابتذال، في زمننا العربي، فقد خلفتْ كتلةً مبهمةً، لا وجهَ فيها ولا ملامح، وإن كان لها صوت راعدٌ، عقيمُ الكلمات.

دمشق

(١) هاينريش هاينه: **رايسبيلدر. رحلات هاينه في أوروبا**. (دار التنوير، بيروت، المجلد الثاني، ص: ٩)

حكايات قصيرة جداً

ثائر زكي الزعزوع

١ ــ تابوت

حين كنت صغيراً، كنت أركض خلف الجنازات، وأراقب التوابيت بدهشة. وبعد أن كبرت قليلاً، قال أبي: «كلّ الناس حين يموتون، يُحملون هكذا». فصرت أخاف النظر إلى التابوت حين يمرّ.

وذات مرّة ـ وقد صرتُ رجلاً ـ جاءني في الحلم تابوتٌ يضحك.

٢ ــ شموع الخضر

كانت النساء تطوّف الشموع على وجه الفرات، والدموع تنهمر من عيونهن... إلاّ جارتنا، الداية أم فراس، فقد كانت منشرحة الصدر مبتسمة. وحين سألت أمّي عن السبب، قالت: بعد تسعة أشهر من هذه الليلة، ستنجب كُلّ هؤلاء النسوة.

٣ ــ قرار

قال الرجل لزوجته: الراتب لا يكفي يا امرأة، الأطفال يكبرون ويكثرون، والله لا أعرف ماذا أفعل. ثمّ أضاف: «قررت أنْ نتوقف عن الإنجاب». وعصر نهديها بقبضتيه، حتّى اختفى صوتاهما، ولم يبق غير اللهاث المحموم.

٤ ــ الفائز

حملوني فوق أكتافهم، وردّدوا عباراتٍ لم أسمعها قبلاً، ثم ساروا. كانوا كثيرين جدّاً، أناس أحبهم وآخرون أكرههم. ساروا، وأنا في الأعلى، يتناوبون على حملي، ويردّدون تلك العبارات، حتى وصلنا إلى مكان غريب. وضعوني في حفرة، وغطوني بالتراب، ثمّ انصرفوا.

٥ ــ الرجل العصريّ

عاد يوسف الخليل من أوروبا، بعد ستّ سنوات من الدراسة والعلم. وبعد أشهر، مرض. وحينما أجريت الفحوص تبيّن أنّه مصاب بالإيدز.

٦ ــ العرّاب

حين قُتل عمي، أصدر جدّي الأوامر بأن نستعد للثأر من قاتليه. فتسلح أفراد عائلتنا، وصارت بيوتنا مثل القلاع. بعد سنوات مات جدّي، ومات قاتل عمي، ومازلنا نحمل المسدسات، ونتلصص في الليل مثل القطط.

٧ ــ الرؤية الأخيرة

وقفنا مذهولين، أغلبنا يرى وجه الميت لأول مرّة. هكذا إذن يبدو الموت: كان أحمد ممدداً على سريره بلا حراك، جسده هامد، وجهه أصفر، وعيناه جاحظتان. لكنه كان يرسم على شفتيه ابتسامة لذيذة. قال بهاء: الموتى يبتسمون، ونحن نبكي.

دمشق